التاريخي في فلسطين ١٩٤٧ من زاوية صهيونية ، بل ان المساحة الروائية التي يوظف فيها الحركة الروائية محكومة بشخصية المناضل اليهودي ، في حين يقف الفلسطيني صامتا باردا في زاوية المساحة ، فهو ذات منفعلة وليست فاعلة ، فهو المتفرج على الحدث وليس المشارك فيه . ويقدم كاردوس روايته بالشكل التالي « فلسطين في صيف ١٩٤٧ ، قرية صغيرة شبه — تعاونية في منطقة غزة ، في فترة تزايدت فيها المقاومة اليهودية « ضد » المحتل البريطاني ، الذي يمثل قوة كولونيالية لا يستهان بها . وازاء المقاومة يرد الكولونياليون البريطانيون بحملات بوليسية . انها بداية حرب تحرير وطني ، لكنها في الوقت ذاته بداية حرب اخوية ، عرب ويهود ، كانت حتى تلك الفترة موجهة الى ظهر الانجليز . ان هذه الحرب أجبرت اسرائيل ان تتصرف ضد مبادئها الذاتية » .

هذه السطور تظهر الى اي مدى يلوي كاردوس عنق الحقيقة ، فقيام اسرائيل تمثل حركة تحرر وطني ضد الكولونيالية اي ليست واقعا كولونياليا مغتصبا ، هنا تصبح اسرائيل نظيرة لكل حركات التحرر التي شهدها العالم بعد الحرب الكونية الثانية . الامر الاخر هو ان الصراع العربي الاسرائيلي عشية اغتصاب فلسطين صراع اخوة وليس صراعا بين قوة كولونيالية عنصرية وشعب يدافع عن ارضه . الامر الثالث ان هذا الصراع كان متجها في البدء ضد البريطانيين ولم ينفجر بين « الاخوة » الا في بداية الـ ٤٧ ، الروائي هنا يتناسى الصدامات المستمرة بين العرب والصهاينة منذ بداية ١٩٢٠ وحتى عشية النكبة . الامر الاخير هو ان اسرائيل انجرفت في « حرب اخوية » تخالف رسالتها الانسانية ، فقتالها كان دفاعا عن النفس .

يبث كاردوس اطروحاته هذه من خلال مادة بشرية محدودة اهمها ابراهام بوجاتير ، وهو فلاح عجوز من اصل روسي ذو ميول اشتراكية ، يرى الارض والطبيعة من منظار صوفي ، فبينه وبين « أرضه » تكافل كامل ، فهو يراها ويلمسها ويسري في عروقها ، انه « وأرضه » يشكلان وحدة متسقة متناغمة . وابراهام انسان طيب وديع محب للخير ، يقضي كل وقته في رحاب الطبيعة ، يقف بعيدا عن حقل الصراع الدائر في زمنه .

وهو لا يلج هذا الحقل الصراعي الا بوسيط خارجي ، فهو يزج بالاحداث دون ان يسعى الى ذلك لان ارضه هي حقله العام والخاص .

تنفتح نافذته على حقل الصراع عندما يأتي اليه طارقا في الليل ، ارهابي في منظمة الارغون (ديفيد) يهدده بمسدس ، ينام عنده . بعد ذلك يطلب ابراهام من الارهابي ان يعمل عنده ، لكن هذا الشاب ما يلبث ان يهرب بعد فترة . تغلق نافذة ابراهام من جديد ، لكنه يعود الى ميدان الاحداث التاريخية عندما يخرج من بيته ، وعلى بعد عدة كيلومترات يوقفه البوليس البريطاني ويقوده الى متاهة من التحقيقات ، ثم الى السجن ، اما سبب ذلك فهو ان ابراهام لا يحمل معه هويته الشخصية . بعد ذلك يفرج عن ابراهام فيعود الى مزرعته محاصرا بالقلق ، جزعا ان يقبض البوليس على ديفيد ويدلي باسم ابراهام الى « المحتلين » . وتنتهي الرواية عندما ترى طائرات بريطانية تتجه الى البحر في حين يبقى ابراهام في انتظار « قدره المأساوي » .

العقدة الروائية هنا لا تشكل الا الهيكل الخام للرواية ، في حين تلعب الايدولوجيا والسياسة دور الملبس ، اي لحم الرواية وبنيانها عهد به الى الفكر الذي يطرح نفسه من خلال شرائح روايته . فالشكل الروائي هنا هو الاداة التي بواسطتها يطرح الفكر الصهيوني شحناته ، بل يمكن القول ان الرواية هنا تستحيل الى لعبة برجماتية لانها لا تلعب دور الرواية بمعناها التكويني بل تصبح قناة ايدولوجية لتاريخ فج ومغلوط .

فخضرة فلسطين في نظر الكاتب لم تنبجس الا بقدوم المستعمرات الصهيونية « تدوم الرحلة الى المجدل حوالي ساعة . عندها كان ابراهام ينظر بأسى الى بساط المستعمرات اليهودية الاخضر المبعثرة هنا وهناك بين الاراضي العربية الجافة ص : ١٠٠ » وهكذا فخضرة فلسطين مستوردة !!

أمر اخر يثير الانتباه هو طبيعة العلاقة بين الصهاينة والانجليز فهي ليست علاقة عدائية فقط « ويرى ابراهام عبارة على جدار مكتوبة بالحوار ، ايها المحتلون البريطانيون اخرجوا من بلادنا ص ١٠١» بين مغتصب ومغتصب ، لكن هذه العلاقة